« زردة »

قصة بقلم ادريس عدلال الخوري

كان المدعوون يدلفون الى الدار واحدا اثر اخر ، كخريجي الجامعة حين ينادى عليهم لنيل الشهادات ، وكان عبد القادر يرحب بهم بابتسامة عميقةلها الف مدلول واسع على سروره هذا المساء ، فمنذ ثلاثة أيـــام، ختن ولديه الصغيرين : مصطفى وعبد الاله ، اللذين يختلفان في السـن والطول ، كانت فكرة « الختانة » قد راودت ذهنه عند بداية الشهر الذي قبض فيه راتبه ، وقد رأى بنفسه ، ان رجال العمارة لا يفتأون يتنافسون في اقامة الاعراس و « الزرادي » تمهيدا لختن اولادهم ، وكذلك زوجته، تلك المرأة القصيرة البدينة ، فقد كانت تولول وتضطرب كلما سمعـت زوجها يقول بأن الوقت قد حان لتنفيذ ما عزم عليه ، كانت تشفق عـلى ولديها وتسرف في الاشفاق ، وعند عتبة هذا الاسبوع بالضبط ، أقيمت في العمارة والحي البعيد عنها مسافة امتار ، أكثر من « زردة » وعرس، وعلقت يومها، الرايات الوطنية الحمراء ، وتبودلت الهدايـا والمواكب ، وخرج الاطفال المختتنون في دلال وغنج ، بعضهم داخل السياراتالفخمة، المختلفة اللون ، والبعض الاخر فوق ظهور الجياد المطهمة ، التـي كانت تطوف بهم جوانب الساحات والدروب، حيث النساء الطويلات والقصيرات، لا يكففن عن الزغاريد الهاتفية ، والنشبالمناديل المطرزة . على ضوء هذا، كان عبد القادر ، ضمن الذين ختنوا اولادهم ، لكن كان ذلك عنـده في دائرة الصمت والسكون.

بيد ان « المعلم » الذي جيء به الى الدار لم يكن شيخا كبير السن، كما يفعل بعض الاشخاص الذين ما زالوا يؤمنون بالطريقة القـديمة في « الختانة » .. بعض الاشخاص ممن يستدعون حلاقي الحي المعروفـين، بل كان شابا نشيطا الى اقصى حد ، يعمل ممرضا في احد المستشفيات الحكومية ، وكان طويل القامة نحيل الهيكل ، يضع نظارة سوداء عـلى عينيه الضيقتين ، ويجيد التحدث بطلاقة بالفرنسية كما لو كان فرنسيا، وقد مرت النتيجة التي جاء من اجلها بسلام عفوي ، ولم يحس الولـدان بأدنى ضرر ، نظرا للطرق العصرية التي استهدفا لها في المعالجة.

كما ان الدار ، اثناء ذلك ، لم تشهد أي تغيير مفاجيء ، كان ذلـك شيئا عاديا عند الاسرة ، لكنه رائع في أعماق الاب ، لكم كان يسره انـه لا ينجرف مع تيار الشكليات المزيفة ، على ان الذي حمله على ان يختن ولديه : عطلته السنوية التي تستغرق شهرا كاملا ، والتي حصل عليها من ادارة الميناء الذي يعملفيه منذ أكثر من سبعة عشر عاما، لقد كانأقدم العمال فيه ، ولولا مشكلة « الختانة » التي كانت تنتظره ، لقضى الشهر في بعض مدن الاصطياف كما فعل وصديقه في السنة الماضية .

وانقطع حبل المدعوين الطويل ، ودخل عبد القـادر المطبخ ليتفقد أحواله ، كيما يكون رأسه مرفوعا أمام أصدقائه الذين يتفننون فيالتعليق على طعم الاكل ، كانت زوجته هي المشرفة الرئيسية على شؤون الطهـي، تساعدها صديقة أخرى قديمة كانت قد عاصرت زواجها من هذا الرجـل قبل خمسة عشر عاما ، كان هم هذه الصديقة داخـل المطبخ ، غسـل الكؤوس الصغيرة والنفخ بالكير الخشبي كالحـداد عـلى « المقراج » النحاسي ، الذي كان يئن من تأثير الجمر تحته .. وقال الرجل لزوجته:

— يجب أن تكون الصينية مجهزة .. ان «الطلبة » ينتظرون الشاي .. هيا أسرعي .

ونظرت اليه الزوجة نظرة تساؤلية ، كانت نظرتها جافة في الاصل، وكلفت صديقتها بتنفيذ ما قاله لها الزوج ، وبشيء من الصمت ، دخـل على الحاضرين الذين كانوا يتحدثون ، ثم أخذ يمازح رئيس الفقهـاء عباس ، ذلك الفقيه المفرط السمنة ، والذي يلبس جلبابين صوفيين ، ان عبـاس كـان المعلم الاول للابن الاكبر لعبد القادر ، يوم كانت المدرسة عديمة الوجود ، وفوق هذا فهو يتمتع بتبعية عظيمة قلما يتمتع بها فقيه اخر ، فحيثما يكون حفل ديني مقاما يذهب اليه ، وغالبـا ما يعهد اليه باختيار رفقائه ..

ورحب عبد القادر بالمدعوين من جديد ، كان ثناؤه عليهم مزدوجـا الا انه حينما اراد ان يجلس ليستريح ، سمع تصفيقة يد عابرة ، مـرت كهمسة .

كانت التصفيقة صادرة من عند المرأة المساعدة للزوجة، كانتتدعوه أن يأتي ، وجاء بالصينية مجهزة تجهيزا تاما، الكؤوس الملونة كانت منظمة تنظيما دائريا ، يتوسطها في الصدارة ، براد كبير أبيض بلون الفضـة، يبدو كديك امام فراخه ! اما « المقراج » فقد كان ينفث من منقـاره المخروطي خيطا ضبابيا من الدخان ، سرعان ما يتلاشى عند بلوغـه السقف ، وقد اقترح عبد القادر على احد الفقهاء ان يصنع للحاضريـن الشاي ، بيد انه رفض ، بحجة عدم معرفته صنعه ، فحول اتجـاه الصينية الى فقيه اخر بقربه ، لكنه رفض أيضا .. وظل عبد القـادر يطوف بصينيته محاذيا بها أرجل الفقهاء ، الى ان سمع أخيرا صـوت رجل أبح ، قابع في الزاوية اليسرى من البيت ، يطلب منه ان يضـع الصينية امامه ، فقد خلصه منها .. من رفعها كل مرة ، وقد أثار هـذا الرفض اللامتوقع ، كثيرا من التساؤلات عبر التفاتات الحاضرين الـى بعضهم ، واعتبروه نوعا من التكبر ، ففي عرفهم الذي تطبعوا عليـه ، ان الشاي لا يحلو ، الا اذا كان من صنع فقيه محترم ..

فجأة ، دوى صوت فقيه لاعنا الشيطان الرجيم ، واستبق الـى الاية المنشودة ، وتبعه الفقهاء في طريقه ، مكونين كلهم ، صوتا جماعيـا كبيرا يصم الاذان ، كانت اصواتهم تعلو وتنخفض حسب الجملة القرآنية التي تدعو للعلو والانخفاض ، وكثيرا ما كانوا يقفون عند « وقفة »، ولقد كان عباس ، سيد الحلبة في ذلك الليل ، فصوته بحق ، كـانأحسـن إصوات الفقهاء ، التيكانت تثير في النفس شيئا من التقزز لدىسماعها. كان صوته يحمل رنينا حديديا جميلا ، وبصورة ميكانيكية ، طرحالفقيه الذي ابتدأ الاية عصا الوقوف ، منهيا قراءته بالحمد ، بعـد ان خفـت صوت الاخرين بمهل .. وما ان سكتوا جميعا ، حتى اندلقت عليهم أدعية المدعوين الملخصة في الترحم على أولئك الذين كان لهم الفضل فيتعليمهم القرآن .

وقام عبد القادر يوزع كؤوس الشاي كأسا كأسا ، فيما كان شاب يسترق النظر الى الفقيه عباس الذي أعجبه بصوته ، لقد اقترح هـذا الاخير فتح نافذة كيما يدخل هواء الليل ، الجميع أحس بالحـرارة ، ولبى عبد القادر طلب عباس ... انه يخشى بطش الفقهاء المتمثل في تهيئة « الفاتحة » وهي دعاء يسبب لصاحبه كثيرا من المصائب في الحياة، وبعد ان افرغت الكؤوس وارجع بها الى مركزهـا ، نبع من الزاويـة اليمنى صوت فقيه رزين يرتل قصيدة شعبية دينية ، كانت القصيـدة طويلة في مدح الله ، كانت شكرا على نعمه الكثيرة التي لا حصر لهـا، ولكنه سرعان ما اتمها لسرعته في السرد ، حيث ختمها بالصلاة على «خير المرسلين » ، وهناك ، تحرك جسم الفقيه عبـاس ، وبدا عليه انـه لا بـد سيقول شيئا .. شيئا ما مجهولا ، يجب عليه ان يظهر للحاضرين فنه في قراءة الفضائل الشعبية الدينية ، وكانت عينته الرائعة ، قصيدة فيكيفية

« زردة » : وليمة يحضرها فقهاء الحي ورجاله .

تنوين النون، وحذف الالف المعلق فوق فضاء الكلمة، وكذلك الكاف ذات العنق الذي يشبه عنق الجمل ، في طول رأسه ، وحين أتى عليها بكاملها ، رتل آية اخرى مسلوبة من حزب « ولقد وصلنا » ..

وأخذوا يقرأون ..

كان الشاب غير مستقر في جلسته بصفة منتظمة ، لقد أحس بالحرارة المفرطة تغزو هيكله النحيل ، وقام الى الخارج يطلب الهواء، لينطفيء جسمه من « الصهد » الذي اجتاحه ، ولكن خروجه ، أثناء القراءة ، أثار تعليقات شتى ، ومكث هناك طويلا . كان يمسح العرق تارة ويلوح بمنديل لجلب الهواء تارة اخرى ، ثم دخل ليجد الفقهاء قد انتهوا ، كانوا غارقين في خضم السياسة ، والعجيب في الامر ان الشاب قد لمس في حديث عباس ، دراية واسعة في خوض غمارها ، كان الفقيه لاينفك يصب اللعنة على فرنسا التي استعمرت الجزائر وعذبت شعبها ، الا ان الشاب ازداد نشوة ملأت ساحة ذاكرته ، وقد تساءل : كيف يعقل ان يتحدث فقيه في السياسة العالمية ؟ ماهمه منها ؟ بيد انه مهما تساءل فهو يريد ان ينصت الى مثل هذه الاحاديث الصادرة من أناس بسطاء ، لهم دورهم في الحياة والتعبير .

كانت كؤوس الشاي تنتظر بدورها انقضاء الحديث الذي بقي متداولا ، يلوكه كل فم ، وقد وزعت عليهم بسرعة لان الفقهاء يريدون القراءة النهائية ، فان العشاء كان موضوعا فوق الموائد ينتظر من ينقض عليه ، وقرأ الفقهاء الاية الاخيرة ، الى ان ثملت رؤوس الحاضرين من الانصات ، بعدها اخذوا يغسلون أيديهم .

كانوا مكونين حلقات صغيرة ، وكانت كل حلقة تحيط بمائدة ،.وكان الفقهاء يشكلون ثلث الحاضرين ، فقد انقسموا دائرتين كبيرتين ، كان الجميع يأكل ويهمهم بكلمات مضية ، لم يكن عبد القادر ضمن الاكلين ، كان يقوم بتلبية النداءات ، انه يوزع كوب الماء على كل من يرغب في شرب الماء ، لقد كان موليا جل اهتمامه بالفقيه عباس ، حتى انه كان يعطيه الكوب دون ان يكون الاخر في حاجة اليه وانقضوا على الاكل ...

وغسلوا ايديهم من الدسم ، وتجشأ كل من أحس في نفسه التجشؤ ! وان كان ذلك مكروها ، ومثيرا في نفس الوقت جملة انتقادات باطنية لا توجه مباشرة الى المتجشيء ؟ لقد استوى الفقهاء في الجلوس، يقرأون الفاتحة الاولية ، ان الفاتحة تعبيد لاخذ المال ، بل انها انتظار له ، وأخرج عبد القادر من جيبه ورقة مالية ، كانت الورقة صفراء ، من فئة الف فرنك ، فانسابت لمرآها بلاعيم الفقهاء وشخصت لها أبصارهم، وسقوه فيضا من الادعية والثناءات ، ثم تبعه اخوه بورقة اخرى موازية، وهكذا اخذ الحاضرون يحكون جيوبهم كي يظفروا « بالفاتحة » .. ان الكل يريد تحقيق امل قديم ، لقد تكدست حذاء رجلي عباس ، كومة من الاوراق النقدية والفضية ، ولقد اعطوا لكل واحد مايريد ..

وخرج الجميع مهنئا عبد القادر على هذه « الزردة » ، ثم لفهم الظلام الاسود ..

قال الرجل لزوجته :

ـ مارأيك ؟.. لقد كانت « زردة متخمة » !

فردت عليه زوجته بابتسامة ثقيلة المجيء ..

ـ حقا ، كان كل شيء جميلا ، ولقد بذلت جهدي في ان يكون ذلك موفقا ، ثم ان صفاء قلبك هو الذي وفقها ، ولكن يجب ان تستعد لاقامة « زردة » اخرى ، تحضرها نساء العمارة ، مارأيك انت ؟

وضحك الزوج بفتور ، ومضى لمخدعه كي يخلع عنه تعب هذه الليلة .. وارتمى فوق الفراش ..

الدار البيضاء — **ادريس علال الخوري**

فِـرار

***

فتحنا للهوى بابا .. وغنينا
وأطلقنا خيال الارض عبر مقاطع الالفاظ
ورحنا عن بلاد الناس
نشيع عالما كنا بجوف الليل قتلاه
وما زالت على طرقاته أشلاء موتانا
سنضرب في فجاج الريح مجهولين
الهين ذوى في الارض ظلهما ..
فراحا عن بلاد الناس
يهدهدنا اخضرار العالم المسحور في العينين
وننسى أننا غرباء
وأن قوافل السنوات لا تلد
وننسى أننا بشر ..
وأن العالم السفلي مهوانا
وأن مخادع الاحلام ما عادت لنا برءا
وأن الموت يزحمنا .. يطاردنا بكل طريق
تسمرنا على الجدران كفاه
سنرحل دائما .. ونعيش نضرة هذه الاكوان
نداعب في الفضاء الرحب ظلينا
ونغسل في انهمار الضوء قلبينا
وفرشتنا عريشة غيم
وغفوتنا على شباك حلم ناعم الاصداء

*

سنرحل يا هوانا البكر ..
يا أغنية الميلاد
سنرحل دائما .. ونموت قبل الموت

القاهرة ـ بابل — **حسن النجار**